أصوات اللغة عند سيبويه
مراجعة وتفسير

د. أحمد محمد قدور(*)

١ - تمهيد

يعرض هذا البحث للدرس الصوتي عند سيبويه (ت١٨٠هـ)، في باب الإدغام ضمن باب فرعي قدّم فيه المبادئ الرئيسة للدرس النظري للأصوات(١). أما ما عدا ذلك من أبواب ومسائل فيها درس نظري أو تطبيقي

(*) عضو مجمع اللغة العربية بدمشق.

(١) انظر: الكتاب لسيبويه، تحقيق عبدالسلام هارون، عالم الكتب، بيروت. ويقع باب الإدغام كاملًا بين الصفحة (٤٣١)، والصفحة (٤٨٥) من الجزء الرابع. ويضمّ هذا الباب أبوابًا فرعية، أولها الباب الذي خصّصه للدرس النظري، وهو «باب عدد الحروف العربية، ومخارجها، ومهموسها ومجهورها، وأحوال مجهورها ومهموسها، واختلافها». ثم يعرض ثانيها، والأبواب الفرعية اللاحقة، وهي ستة أبواب لشرح أحوال الإدغام تطبيقًا. وقارن بطبعة بولاق (سنة ١٣١٧هـ)، ٢/ ٤٠٤- ٤٣٠.

فسيأخذ مكانه من هذا البحث كلّما اقتضت الحاجة ذلك. وقد ذكر سيبويه لأجل فهم الإدغام مايحتاج إليه من تعيين حروف العربية، وبيان مخارجها، وشرح مجهورها ومهموسها، وما يستكمل به درسها من الصفات. ومع أن هذا الباب الفرعي لايمتدّ إلا على خمس صفحات ونصف، فإنه ضمّ مسائل رئيسة من مسائل الدراسة الصوتية التي أثرت في الدراسات اللاحقة، وكشفت عن أفكار عميقة وآراء مبتكرة.

وقد عرض لدرس سيبويه الصوتي خلقٌ كثرٌ من الدارسين المحدثين عربًا ومستشرقين على اختلاف وجهاتهم ومنطلقات درسهم، ممّن سنعرض لبعضهم لاحقًا. غير أن المجال مايزال قابلًا لإعادة النظر، وتفسير الغامض، وتوجيه ما اختُلف فيه توجيهًا جديدًا. على أنه يمكن للدارس أن يمرّ ببعض ماأورده سيبويه مرورًا سريعًا لوضوحه وعدم الاختلاف فيه، نحو عدد حروف العربية، والحروف الفرعية المستحسنة، وغير المستحسنة، والإطباق والانفتاح، والشدّة والرخاوة. لكنه مدعوّ إلى التدقيق في ترتيبه للمخارج، وجمعه الصحاح والعلل، أي «الصوامت والصوائت» على صعيد واحد، وحديثه عن الضاد الضعيفة، وعدم وضوح درسه للتوسّط بين الشديد والرخو. أما مفهومه للجهر والهمس فهو لبّ المسائل المختلَف فيها على امتداد العصور قديمًا وحديثًا.

ويغلب على الظنّ أنّ سيبويه بحسب النصوص الواردة في كتابه، هو أول من قدّم تعريفًا اصطلاحيًّا للجهر والهمس، ووظّف ذلك في باب الإدغام توظيفًا يدلّ على استيعاب وتمكّن. وليس بعيدًا أن يكون قد أخذ ذلك من شيخه

الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت ١٧٥هـ) – وكتابه أصلًا ألّف في علم الخليل – إذ يؤنس بذلك وجود إشارات إلى الخليل وتلاميذه في بعض النصوص[٢]. ويقود هذا إلى مسألة مهمّة طرأت أخيرًا، وهي تأكد أصالة الدرس الصوتي لدى الخليل بعد شكوك رُمي بها كتابه «العين» عامة، وشكوك أخرى رمي بها درسه الصوتي خاصة[٣].

وليس لدى القدامى إضافات جدّية إلى ما ذكره سيبويه في تضاعيف درسه، وهو جملةً رأيه ورأي شيوخه[٤]. بل إنّ معظم هؤلاء اقتنعوا بتكرار عبارات

(٢) انظر ما نقله إبراهيم أنيس عن شرح السيرافي لكتاب سيبويه، في كتابه: الأصوات اللغوية، ط. رابعة، الأنجلو المصرية بالقاهرة ١٩٧١، ص١٢١–١٢٢. وانظر ما نقله غانم قدوري الحمد عن معاني القرآن وإعرابه للزجاج، في كتابه: الدراسات الصوتية عند علماء التجويد، مطبعة الخلود ببغداد ١٩٨٦، ص ١٢٨– ١٢٩.

(٣) انظر كتابي: أصالة علم الأصوات عند الخليل من خلال مقدمة كتاب العين، ط. ثانية، دار الفكر بدمشق ٢٠٠٣. وتتلخص المسألة في اتجاهين: قديم يشكّك في نسبة كتاب العين إلى الخليل لأسباب تتعلق بطريقة وصوله إلى العراق، وما يضمّه من أشياء منسوبة إلى زمن تأخر عن الخليل، أو ورود آراء لايصحّ نقلها عن شيوخ البصرة. واتجاه حديث يزعم أنّ آراء الخليل عامة ليست له، إنما قبسها من الهنود وغيرهم. وهذا ما لم يثبت بحال. وقد انتهيت في كتابي السابق الذكر إلى أن الدرس الصوتي عند العرب هو للخليل أصالة، وأن ما اعترى كتابه من خلل في بعض المواضع لايقدح في أنه للخليل، ولا سيما تلك النصوص المؤكدة كالمقدمة التي صدّر بها كتابه والتي وثقها معظم القدامى، وأخذوا منها، أو اقتبسوا معظم ماورد فيها. وانظر بعض الاستنتاجات الخاطئة لدى إبراهيم أنيس في كتابه الأصوات اللغوية، ص١١٢.

(٤) انظر ما جاء في كتاب المزهر للسيوطي، البابي الحلبي بمصر، ١/ ٨٥ من أن سيبويه حامل علم الخليل، وأوثق الناس في الحكاية عنه، ولم يكن ليُخالفَ قوله، ولا ليناقض مذهبه. وانظر تمام حسان في كتابه: اللغة العربية معناها ومبناها، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط. ثانية، القاهرة ١٩٧٩، ص٥١، حيث ذكر أن ترتيب سيبويه للمخارج هو ترتيب شيوخه كذلك.

سيبويه نفسها من دون تغيير ما. ويؤكد هذا أنّ سيبويه أتمّ مواضيع الدرس الصوتي المناسب للعربية من جهة، وأنّ الذين جاؤوا من بعده لم يجدوا مايعدّ خطأ في درسه من جهة أخرى. لكنّ كلام سيبويه لم يكن كلُّه مفهومًا، إذ اعترى الكثير منه غموض لم تفلح الشروح اللاحقة في إزالته.

أما المحدثون فقد عرضوا لدرس سيبويه الصوتي كالدكتور إبراهيم أنيس والدكتور تمام حسان والدكتور عبدالصبور شاهين والدكتور غانم قدوري الحمد وغيرهم. كما عرض له عدد من المستشرقين كأرتور شاده وهنري فليش وجان كانتينو، وبعض مؤرخي اللسانيات من الأجانب. وقد أُثيرت في هذا التناول الحديث مسائل مهمّة، أبرزها محاولات فهم الجهر والهمس وصوت الصّدر، وبيان قرب ذلك أو بعده من الدرس الصوتي الحديث، ولا سيّما بعد تطوّر وسائل التشريح وفيزياء الصوت والتصوير التلفزي لجهاز النطق وآلياته الدقيقة. وقد انتهى بحثنا هذا إلى أنّ مفهوم الجهر والهمس لدى سيبويه ليس مرتبطًا حتمًا باهتزاز الوترين الصوتيين، كما فهم ذلك عدد من الباحثين المحدثين، وأنه يعبّر عن أثر سمعي لقوّة التصويت في الفراغات الرنانة في الحلق والفم والخياشيم. وإذا صحّ ما انتهينا إليه كان سبقًا يكشف مفهوم سيبويه للجهر والهمس، بعد تأخير مديد، ربّما كان سببه أسلوب سيبويه وعدم وضوح عباراته من جهة، والاختلاف حول مفهوم الجهر لدى المحدثين، وعدم التوصّل إلى معايير شاملة للجهر على المستويين النطقي والسمعي من جهة أخرى.

إنّ من حقّ سيبويه علينا أن نعود إلى درسه بالفحص والتفسير كلّما جدّ جديد في علوم اللغة وتطبيقاتها التقنية، لأن هذه العلوم تكشف لنا غوامض هذا

الدرس، وتبرهن للدارسين أن ما أنجزه سيبويه في تلك الصفحات القليلة يعدّ أثرًا علميًّا فذًّا قلّ نظيره في تاريخ اللسانيات. ومن واجبنا العلمي الخالص أن ندفع تلك الآراء السطحية التي زعمت أن سيبويه فهم النحو والصرف، لكنه لم يفهم الأصوات. إنّ شروحه في باب الإدغام تؤكد فهمه العميق، وتَقَدُّمه على كلّ من عرض لذلك من القدامى الذين كانوا عيالًا عليه.

٢- المسائل الصوتية

عرض سيبويه لأبرز ماتهتمّ به الدراسات الصوتية مشيرًا إلى أهمية المشافهة في تبيّن الأصوات تبيّنًا صحيحًا. وهذا نحو من التنبّه إلى الطبيعة الشفهية لِلغة(٥). وهي حقًّا طبيعة واضحة المعالم في درسنا، لأنّ القرآن الكريم والشعر العربي وضروب الفنّ النثري والقصّ ونحوه تُتلى وتُقرأ وتُنقل مشافهة قبل أيّ تدوين. ويتفق هذا مع أسس التحليل اللغوي التي تنطلق من كون اللغات تتصف بكونها كلامًا منطوقًا يتداول مشافهة. لذلك وجب الاهتمام بالأصوات المنطوقة قبل الحروف المكتوبة(٦).

ثم ذكر أن أصل حروف العربية تسعة وعشرون حرفًا عدّدها بالنظر إلى مخارجها، لا إلى صورها الخطية الألفبائية، أو قيمها العددية التي تنطوي في الترتيب الأبجدي. ويدلّ هذا على اتجاه نحو الطبيعة الصوتية للحروف. والحروف عند سيبويه وغيره من القدامى تدلّ بحسب سياقها على المنطوق أو

(٥) انظر: الكتاب، ٤/ ٤٣٢.

(٦) انظر كتابي، أصالة علم الأصوات عند الخليل (مرجع سابق)، ص٢٣-٢٤.

المكتوب[٧]. لكنه أشار إلى شيء جديد هنا هو الحروف الفرعية. وينبغي أن نقرّر أن عدد الحروف لدى سيبويه هو الشائع في المصادر القديمة وعليه المعوّل، مع اختلافات يسيرة لم تجد سبيلها إلى الشيوع[٨].

وأورد سيبويه مادعاه بالحروف الفروع، لأن أصلها من التسعة والعشرين السابقة، وهي كثيرة وتستحسن في قراءة القرآن والأشعار. والغالب أنها كثيرة الاستعمال لا العدد، لأنه حصرها في ستة فروع عدّها فصيحة. ويبدو أن معظمها مستفاد أصلًا من كتب القراءات القرآنية التي دوّنت الوجوه القِرائية المتعدّدة، والمنقولة من المصطفى ﷺ. أما ورودها في الأشعار الفصيحة فطبيعي، إذ نزل القرآن الكريم بلسان عربي مبين عماده التعبير الأدبي ولا سيما في الشعر ديوان العرب. وقد نصّ مكي القيسي صاحب كتاب الرعاية على أن خمسة من هذه الفروع ترد في قراءات القرآن الكريم، أما السادس منها وهو الشين التي

(٧) انظر حول مفهوم الحرف بحث «ظاهرة الحرف عند اللغويين العرب القدماء» لمحمد لطفي الزليطني، مجلة المعجمية العربية، تونس، العدد الثاني ١٩٨٦، ص٤٧ وما تليها.

(٨) انظر: ابن جني: سرّ صناعة الإعراب، تحقيق حسن هنداوي، ط. دار القلم بدمشق ١٩٨٥، ١/ ٤٥– ٤٦، وفيه: «فهذا هو ترتيب الحروف على مذاقها وتصعّدها، وهو الصحيح، فأمر(كذا والصواب: فأما) ترتيبها في كتاب العين ففيه خطل واضطراب ومخالفة لما قدّمناه آنفًا مما رتبه سيبويه، وتلاه أصحابه عليه، وهو الصواب الذي يشهد التأمل له بصحته». وانظر: الكتاب لسيبويه، ٤/ ٤٣١، وقارن بمكي بن أبي طالب القيسي، الرعاية لتجويد القراءة وتحقيق لفظ التلاوة، تحقيق أحمد حسن فرحات، ط. دار المعارف بدمشق ١٩٧٣، ص٧٢ وما يليها.

كالجيم فلا يرد في هذه القراءات[٩]. كذلك أورد سيبويه ثمانية فروع وصفها بغير المستحسنة ولا الكثيرة في لغة من ترتضى عربيته، ولا ترد في قراءة القرآن ولا في الشعر. وقد وصفها ابن جني بأنها لا تكاد توجد إلا في لغة ضعيفة مرذولة غير متقبلة. أما مكّي القيسي فقد وصفها بالقلة والشذوذ[١٠]. ومع أن سيبويه لم يذكر مصدر هذه الفروع «الرديئة»، فإننا نظنّ أن بعضها انحدر إلى العربية من آثار التعريب، وأن بعضها لم يفارق طبيعته اللهجية الضّيقة فبقي بعيدًا عن الفصيح[١١].

ثم وصف سيبويه الضاد الضعيفة وصفًا غامضًا حيّر الدارسين فذهبوا في تفسيرها مذاهب شتّى. وأقرب ما يمكن أن يوافق وصف سيبويه هو ما ذكره

(٩) انظر: مكي، كتاب الرعاية (مرجع سابق) ص٨٨. والفروع الخمسة هي النون الخفية أو الخفيفة، والهمزة التي بين بين، والألف التي تمال إمالة شديدة، والصاد التي كالزاي، وألف التفخيم بلغة أهل الحجاز.

(١٠) انظر: ابن جني، سرّ صناعة الإعراب، ١/ ٤٦، ومكي، كتاب الرعاية، ص٨٨-٨٩.

(١١) انظر: الخضر اليزدي، شرح شافية ابن الحاجب، تحقيق حسن أحمد العثمان، مؤسسة الريان، بيروت ٢٠٠٨، ٢/ ٩٩٨. وجاء فيه تعليقًا على هذه الفروع المستقبحة – كما يقول – أنها إنما نشأت هذه المستهجنات بمخالطة العرب غيرَهم، ومن الجائز أن يكون من مقتضيات تغيّر الزمان. ومنها ما هو لغة عوام أهل البادية.. . وهذه الفروع هي – كما أوردها سيبويه-: الكاف التي بين الجيم والكاف، والجيم التي كالكاف، والجيم التي كالشين، والضاد الضعيفة، والصاد التي كالسين، والطاء التي كالتاء، والظاء التي كالثاء، والباء التي كالفاء. انظر: الكتاب، ٤/ ٤٣٢، وانظر تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، ص٥٤.

السيرافي من أن هذه الضاد الضعيفة كانت تنطق كالظاء، أو بين الضاد والظاء[١٢]. ويشار هنا إلى أن جان كانتينو تتبع استعمالات متعدّدة للضاد في لهجات عربية مختلفة. وذكر في هذا الصدد أنها تنطق كالظاء – أي كالضاد الضعيفة– أو تنطق ظاءً خالصة، أو دالًا مفخمة، أو طاء، أو زايًا، أو ذالًا، أو لامًا[١٣].

ووقف سيبويه بعد ذلك على وصف دقيق لمخارج الحروف العربية، وجعل لها ستة عشر مخرجًا مبتدئًا من أدنى الحلق. ويبدو أنه يسلك مسلك شيخه الخليل الذي نظر إلى الحروف كلّها وذاقها (أي جرّب نطقها)، فوجد مخرج الكلام كلّه من الحلق، فصيّر أولاها بالابتداء أدخل حرف منها في الحلق[١٤]. وعلى هذا النحو جرى جمهور القدامى لاعتبار الصوت المنبعث من الصدر الأساسَ في ترتيب المخارج مبتدئين بما يلي الصدر. وذكر شارح المقدمة الجزرية زكريا الأنصاري (ت٩٢٦هـ) أن الأَولى أن يكون أولُ المخارج هو الشفتين، ثم اللسان وما يليه، ثم الحلق فالصدر. لكنه وافق الناظم ابن الجزري (ت٨٣٣هـ)

(١٢) انظر: جان كانتينو، دروس في علم أصوات العربية، ترجمة صالح القرمادي، نشر الجامعة التونسية ١٩٦٦، ص٨٦. وانظر: رمضان عبدالتواب، المدخل إلى علم اللغة، الخانجي بالقاهرة، ط. ثانية ١٩٨٥، ص٦٢– ٧٤.

(١٣) انظر: كانتينو (مرجع سابق)، ص٨٥– ٨٧.

(١٤) انظر: الخليل، كتاب العين، تحقيق مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي، دار الهجرة، ط. إيران ١٤٠٥هـ، ١/ ٤٧.

الذي جرى مجرى المتقدّمين في ترتيبهم المشهور(١٥). ويشير وصف المخارج عند سيبويه إلى معرفة دقيقة بأعضاء النطق، إذ ذكر الحلق وقسّمه إلى ثلاثة أجزاء متتالية، وذكر اللسان، وحدّد أجزاءه، كأقصاه، وطرفه، ووسطه، وحافته، وأول حافته، ومنتهى طرفه، وظهره، وحروفه. وذكر الحنك الأعلى، ووسطه. وذكر الأسنان تفصيلًا كالأضراس، والضاحك والناب والرباعية والثنايا وفويق الثنايا وأصولها وأطرافها والثنايا العلى. وذكر الشفتين وباطن الشفة السفلى. كما ذكر الخياشيم ونسب إليها مخرجًا مستقلًّا. ومع أن سيبويه اقتصد في رصد آليات النطق – على عادة اللغويين– فقد أظهر تدقيقًا لافتًا في تعيين المخارج، وتحديد مناطق النطق، وتنظيم ذلك تنظيمًا مكتملًا. لكن فاتته معرفة الوترين الصوتيين فضلًا عن عدم ذكره الحَنْجرة التي تعادل عنده أقصى الحلق. وليس هذا بمستغرب، إذ لم يعرف القدامى، من مختلف الأعراق، الوترين الصوتيين. وربما كان هولدر (W. Holder) أول من وصف عمل الحنجرة أثناء الجهر، وردّه إلى انقباض جانبيّ الحنجرة ومرور النفس في فتحة المزمار(١٦).

(١٥) انظر: زكريا الأنصاري، الدقائق المحكمة في شرح المقدمة الجزرية، تحقيق نسيب نشاوي، دار المكتبي بدمشق ١٩٩٥، ص٤٢.

(١٦) انظر: روبنز، موجز تاريخ علم اللغة في الغرب، ترجمة أحمد عوض، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، رقم (٢٢٧)، تشرين الثاني ١٩٩٧، ص٢٠٠– ٢٠١، وانظر: جورج مونان، تاريخ علم اللغة منذ نشأتها حتى القرن العشرين، ترجمة بدر الدين القاسم، جامعة حلب ١٩٨٢، ص٢٠٨، وقارن بـ بوردن وهاريس، أساسيات علم الكلام، ترجمة محيي الدين حميدي، دار الشرق العربي، حلب (د.ت)، ص٤٠١.

وقد علّق كانتينو على ترتيب سيبويه واصفًا إياه بأنه «ترتيب صحيح بصفة جليلة ملحوظة وموافق لترتيبنا نحن»[١٧]. لكن تجدر الإشارة إلى أنّ بعض علماء التجويد جعلوا المخارج سبعة عشر مخرجًا، إذ أفردوا للحروف الجوف (الصوائت الطويلة) مخرجًا مقدّرًا جعلوه يتصدّر الترتيب[١٨]. على أنّ بعض القدامى كقطرب (ت٢٠٦هـ) والفراء (ت٢٠٧هـ) والجرمي (ت٢٢٥هـ) وابن كيسان (ت٢٩٩هـ) ذهبوا إلى أن مخارج الحروف هي أربعة عشر مخرجًا، فجعلوا اللام والراء والنون من مخرج واحد، وهو طرف اللسان[١٩]. لكنّ الدرس الحديث لمخارج الأصوات العربية أجرى تعديلًا لترتيب المخارج عند سيبويه صيّرها عشرة مخارج بعد أن كانت ستة عشر مخرجًا. فقد ألغى مخرج الخيشوم، لأن النون المخفاة فرع (ألفون سياقي Allophone) للنون التي هي (فونيم Phonème)، أي وحدة صوتية مستقلة. وجمع مخارج اللام والنون والراء في

(١٧) انظر: كانتينو، (مرجع سابق)، ص٣٢، وقارن بما قاله برجشتراسر في كتابه التطور النحوي للغة العربية، تصحيح رمضان عبد التواب، الخانجي بالقاهرة، ودار الرفاعي بالرياض ١٩٨٢، ص١٣. وانظر ترتيب المخارج لدى سيبويه في الكتاب، ٤/ ٤٣٣- ٤٣٤ وقارن بطبعة بولاق، ٢/ ٤٠٥. أما تمام حسّان فقد زعم أن النحاة العرب خلطوا خلطًا كبيرًا في تحديد هذه المخارج، ثم ضرب مثلًا على ذلك بما ذهب إليه ابن الجزري المتأخر زمانًا. انظر: كتابه: مناهج البحث في اللغة، دار الثقافة بالدار البيضاء ١٩٧٩، ص١١١.

(١٨) انظر مثلًا ترتيب المقدمة الجزرية، في: شرح زكريا الأنصاري (مرجع سابق)، ص٤١.

(١٩) انظر: غانم قدوري الحمد، الدراسات الصوتية (مرجع سابق)، ص١٧٦- ١٧٧.

مخرج واحد. وجعل مخرج الكاف مع الغين والخاء في مخرج واحد سمّاه بالطبقي. وجمع الضاد والصاد والسين والزاي والطاء والدال والتاء في مخرج واحد دعاه بالأسناني اللثوي. وسمّى الهمزة والهاء حنجرية بدلًا من تسميتها بالحلقية.

وليس هذا التعديل بالأمر الخطير، إذ لايعدّ جمع اللام والنون والراء رأيًا جديدًا، فقد رآه بعض القدامى – كما مرَّ بنا آنفًا – وأومأ إليه سيبويه في تضاعيف تحليله لأمثلة الإدغام(٢٠). وكذلك وصف الهمزة والهاء بالحنجرية، إذ سبق إلى ذلك ابن سينا (ت٤٢٨هـ) في رسالة أسباب حدوث الحروف(٢١). أما نقل الضاد إلى مخرج آخر فسببه وصف الضاد الحالية التي ربما تكون متطوّرة عن النطق القديم الذي ينطبق عليه وصف سيبويه. فالمخرج الجديد هو لهذه الضاد «الحديثة»، وليس للقديمة. أما تسمية الخاء والغين بالطبقية ونقلها إلى ما بعد القاف (مبتدئين من الحلق) وجمعها مع الكاف في مخرج سمّي بالطبقي فليس من باب الخطأ الصرف. فقد أومأ إلى نحو من هذا ابن سينا، كما أن سيبويه أشار إلى قرب الغين والخاء من مخارج اللسان(٢٢).

(٢٠) انظر: الكتاب، ٤/ ٤٥٢.

(٢١) انظر: ابن سينا، رسالة أسباب حدوث الحروف، تحقيق محمد حسان الطيان ويحيى مير علم، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق ١٩٨٣، ص٧٢. ويذكر هنا أن ابن سينا لم يلقّب هذين الصوتين، بل وصف خروجهما من فراغ الحنجرة.

(٢٢) انظر: ابن سينا (مرجع سابق)، ص٧٣-٧٤، وص١١٦- ١١٧. وذكر ابن سينا أن الكاف تحدث حيث تحدث الغين، ولكن بحبس تام، وسائر الأحوال بحالها. (ص١١٧). وانظر الكتاب، ٤/ ٤٥٢. وقارن بكتابي: مبادئ اللسانيات، ط. ثالثة ٢٠٠٨، دار الفكر بدمشق، ص١١٤- ١١٥.

ثم عدّد سيبويه الحروف المجهورة، وبلغ بها تسعة عشر حرفًا وافق الدرس الحديث عليها ما عدا الهمزة والقاف والطاء. وعدّد المهموسة أيضًا، وبلغ بها عشرة أحرف. ويوافق هذا التقسيم – فيما يبدو– التقسيم الحديث موافقة تامة. أما مسألة الحروف الثلاثة: الهمزة والقاف والطاء التي تبيّن أنها مهموسة وليست مجهورة، فليست لها قيمة حقيقية(٢٣). ويشرح بعد ذلك مصطلح المجهور والمهموس شرحًا غامضًا بقي فهمه هدفًا للكثير من القدامى والمحدثين على حدّ سواء.

ويقف بعد ذلك على تعريف الحرف الشديد، ويعدّد الحروف التي تتصف بالشدّة، وتعريفه أقرب ما يكون إلى الدرس الحديث، إذ ذكر أن الصوت (يحبس) ولا يجري مع هذه الحروف. أما الحرف الرخو، فلم يعرّفه، واكتفى بالإشارة إلى جريان الصوت فيه، لأنه ضدّ الشديد، كما نقدّر. ويعدّد سيبويه الحروف الرخوة أيضًا. وقد رأى المحدثون من علماء الأصوات أنّ الضاد «الحديثة» شديدة، على حين أن سيبويه عدّ «الضاد» الموصوفة لديه رخوة. وكذلك رأى الدرس الحديث أنّ الجيم ليست شديدة – في صورتها الفصحى– بل هي مزيج من الشدة والرخاوة، ولذلك ينبغي إخراجها من الحروف الشديدة(٢٤). أما الحروف التي لم يضعها مع الشديدة أو الرخوة، فقد ابتدأها بالعين واصفًا إياها بأنها بين الرخوة والشديدة. ثم ذكر اللام ووصفها

(٢٣) انظر: الكتاب، ٤/ ٤٣٤، وقارن بكانتينو (مرجع سابق)، ص٣٥.

(٢٤) انظر: الكتاب، ٤/ ٤٣٤– ٤٣٥، وقارن بإبراهيم أنيس (مرجع سابق)، ص١١٣، وانظر: ص٢٣– ٢٤ منه أيضًا.

بالمنحرف، والنون والميم وفيهما غنة، والراء وفيه تكرير، ومنها اللينة، أي الواو والياء، والهاوي، وهو الألف. ويعقّب على هذه ثلاثة الأحرف (الواو والياء والألف) بقوله: إنها أخفى الحروف (عدم وضوح مخرجها) لاتساع مخرجها، وأخفاهن وأوسعهن مخرجًا: الألف، ثم الياء، ثم الواو(٢٥). ورأى كانتينو أنّه باستثناء العين، فإن الترتيب السابق للشدّة والرخاوة وما بينهما مطابق لترتيب علماء الأصوات العصريين(٢٦). لكن ينبغي أن نشير إلى أن عبارات سيبويه في تصنيفه للأصوات التي تدعى عادة بالمتوسطة لم تكن واضحة، حتى ذهب إبراهيم أنيس مثلًا إلى أن سيبويه عدّ اللام والنون من الحروف الشديدة، لأن طرف اللسان معهما يلزم مكانه، ولكن الصوت مع ذلك يخرج(٢٧). وهذا استنتاج خاطئ تمامًا، لأن سيبويه عدّد الحروف الشديدة والرخوة من قبل، ولم تكن لديه حاجة إلى التكرار أو الإضافة. أما تفسير كلام سيبويه فهو أنه عرض لضرب جديد من صفات الحروف متجاوزًا الجهر والهمس والشدة والرخاوة حتمًا. وليس وصفه للصوت المنحرف، أي اللام وللصوتين الأغنّين، أي النون والميم، وكذلك وصفه للصوت المكرر، أي الراء بالشدّة إلا نحوًا من التدقيق في

(٢٥) انظر: الكتاب، ٤/ ٤٣٥– ٤٣٦.

(٢٦) انظر: كانتينو (مرجع سابق)، ص٣٦، ويقصد كانتينو بكلامه سيبويه وابن يعيش. والأصل هو لسيبويه.

(٢٧) انظر: إبراهيم أنيس (مرجع سابق)، ص١٢٧، وتابعه تمام حسّان في كتابه اللغة العربية معناها ومبناها (مرجع سابق)، ص٥٨– ٥٩.

وصف آلية الصوت في درجات الانفتاح، إذ إنّ هذه الشدّة ليست مساوية لتلك الشدّة الخالصة في الحروف الشديدة. فبعض هذه الحروف «المتوسطة» تبدأ بحبس، لكن الحبس لايمنع الصوت، لأن الهواء يتسرّب من مواضع أخرى، فلا تتمّ الشدّة[٢٨]. ولأنها كذلك ليست رخوة فيحتك الهواء بالعضوين الحاصرين. وأرى أن هذا واضح من كلام سيبويه عن اللام خاصة[٢٩]. ويؤيد قصده المشار إليه أن الحروف التي وصفها بالشدة أو الرخاوة لاتضم أيًّا من هذه الحروف، أي اللام والنون والميم والراء والياء والواو والألف[٣٠]. وبناءً على ماتقدّم فهم الذين جاؤوا بعد سيبويه أنّ حديثه عن هذه الحروف قصد منه شيء آخر غير الشدّة والرخاوة، وهو ما اصطلحوا على تسميته بالتوسّط، ونحوه[٣١].

(٢٨) انظر في وصف درجات الانفتاح: كانتينو (مرجع سابق)، ص٣٢- ٣٣، وقارن بكتابي مبادئ اللسانيات (مرجع سابق)، ص١٢١- ١٢٢.

(٢٩) انظر: الكتاب، ٤/ ٤٣٥.

(٣٠) انظر: الكتاب، ٤/ ٤٣٤- ٤٣٥.

(٣١) انظر: المبرّد، المقتضب، تحقيق محمد عبد الخالق عضيمة، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة ١٣٩٩هـ، ١/ ٣٣١ وقد سمّاها المبرد بالحروف التي تعترض بين الشديدة والرخوة، وذكر أنها شديدة في الأصل، لكن النفس يجري فيها. أما ابن جني فقد دعاها بالحروف بين الشديدة والرخوة. انظر: سرّ صناعة الإعراب (مرجع سابق)، ١/ ٦١، وقال إنه يجمعها في اللفظ «لم يرو عنا»، ونحوه. ولكن تجدر الإشارة إلى أنّ بعض القدامى أخرج الألف والواو والياء من هذه الحروف، وجعلها مع الرخوة. انظر: غانم قدوري الحمد، شرح المقدمة الجزرية، مركز الدراسات والمعلومات القرآنية، جدة، ط. أولى ٢٠٠٨، ص٢٩٣.

ومعروف أن هذا الدرس صنّف حديثًا ضمن درجات الانفتاح. وقد وصف المحدثون التوسّط، ورأوا أن هناك مع الميم والنون تحويلًا لمجرى الهواء إلى الأنف، على حين أن اعتراضًا طفيفًا يحدث في جزء من الفم مع اللام، وأن حجزًا متكررًا يحدث مع الراء. أما الواو والياء غير المدِّيتين فهما تقتربان من حدود الحفيف الذي يتولد مع الأصوات المهموسة. وبناءً على ماتقدم أخرج الدرس الحديث هذه الحروف جميعها من قسمي الشديدة والرخوة، اعتدادًا بالفروق بينها وبين ذينك القسمين(٣٢). أما العين فقد ذكر أنها بين الشديدة والرخوة – كما مرّ بنا– لأنك تصل إلى الترديد فيها لشبهها بالحاء(٣٣) ويدلّ هذا على أن العين تشبه الحاء، وهي أختها في المخرج الحلقي، لكن حفيفها ضعيف لايبلغ مبلغ الحاء المهموسة، مع أنّ الأدلة التجريبية الدقيقة غير متوفرة(٣٤) أما ضمّ الألف إلى الحروف المتوسّطة فهو من باب معالجة «الصوامت» و«الصوائت» على صعيد واحد. والألف ليست إلا صائتًا طويلًا دائمًا بخلاف الواو والياء، إذ لهما حالتان تعدّ إحداهما أقرب إلى «الصوامت»، على حين تعدّ الأخرى من «الصوائت»(٣٥).

(٣٢) انظر: كانتينو (مرجع سابق)، ص٣٢– ٣٣، وتمام حسان، مناهج البحث في اللغة (مرجع سابق)، ص١١٦– ١١٩، وقارن بكمال بشر، علم اللغة العام، الأصوات، دار المعارف بمصر، ط. سابعة ١٩٨٠، ص١٣١– ١٣٢.

(٣٣) انظر: الكتاب، ٤/ ٤٣٥.

(٣٤) انظر: الأصوات اللغوية لأنيس، ص٢٥، وعلم اللغة العام لبشر، ص١٣٢.

(٣٥) انظر: علم اللغة العام لبشر، ص١٣٢– ١٣٣.

ويشير سيبويه في هذا الموضع الشائك – في تضاعيف حديثه – إلى ما لا لبس فيه من صفات أخرى، كالمنحرف (أي الجانبي)، وهو اللام الذي يسمح أحد جانبي اللسان في نطقه بمرور الهواء، على حين يكون وسط اللسان المتصل باللثة حائلًا دون ذلك. والأنفي (أي الأغنّ)، وهو النون والميم. والميم تتصل الشفتان حين النطق بها، على حين أن الهواء يمرّ كلّه من الفراغ الأنفي ويخرج من طرف الأنف (أو الخيشوم). والنون كذلك، إذ يتسرّب الهواء من غير موضع الحبس بطرف اللسان واللثة، ويخرج من الأنف أيضًا. ووصْف سيبويه لهذين الحرفين هو من الوضوح بمكان. ومن هذه الصفات: المكرّر، وهو الراء. والراء لايكاد يظهر الحبس فيها، لأن طرف اللسان يضرب في اللثة ضربات مكررة من دون أن يمنع خروج الهواء من الفم.

وهذه الحروف الأربعة توصف في الدرس الحديث بالموائع (Liquides) وتظهر خصائص هذه الحروف في اتساع مجرى الهواء معها، وعدم انطباق حالتي الشدّة أو الرخاوة عليها، وفي وضوحها السمعي وجهرها، وفي شيوعها شيوعًا كبيرًا لسهولة نطقها (أو ذلاقتها)[٣٦].

أما صفة «الليّنة» التي جاءت في ذلك الموضع أيضًا فتشير إلى عدم إفراد الصوائت، أو الحروف المعتلة بحيز مستقل في درس سيبويه. وقد ظهر ذلك بداية حين جعل الألف اللينة مع مخرج الهمزة والهاء على صعيد واحد، وحين

(٣٦) انظر: مبادئ اللسانيات، ص ١٢٢.

تجاهل التمييز بين حالتي الواو والياء الصائتة والصامتة (أو نصف الصامتة)، فأورد الياء والواو في ترتيب المخارج مرّة واحدة. وجرى على ذلك أكثر العلماء كالمبرّد (ت٢٨٥هـ)، والزجاجي (ت٣٤٠هـ)، وابن جني (٣٩٢هـ)، والزمخشري (ت٥٣٨هـ)، والرازي (ت ٦٠٦هـ)، والسكاكي (ت ٦٢٦هـ)، وابن يعيش (ت ٦٤٣هـ)، وابن الحاجب (ت٦٤٦هـ)، وابن عصفور (ت٦٦٩هـ)، والأستراباذي (ت٦٨٨هـ)، وغيرهم. وكذلك مكي القيسي (ت٤٣٧هـ)، وهو من متقدّمي علماء التجويد[٣٧]. لكن الخضر اليزدي أحد

(٣٧) انظر: المبرد، المقتضب (مرجع سابق)، ١/ ٣٢٨، وزاد المبرد في الحديث عن المخرج الأول قوله: «والألف هاوية هناك» والزجاجي، كتاب الجمل في النحو، تحقيق علي توفيق الحمد، مؤسسة الرسالة ببيروت ودار الأمل بإربد، ط. رابعة ١٩٨٨، ص٤١٠، وابن جني، سر صناعة الإعراب (مرجع سابق)، ١/ ٤٦-٤٨، والزمخشري، المفصّل مع شرح ابن يعيش، إدارة الطباعة المنيرية، مصر، ١٠/ ١٢٣، والرازي، نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز، تحقيق بكري شيخ أمين، دار العلم للملايين، بيروت، ط. أولى ١٩٨٥، ص١١٨- ١١٩، والسكاكي، كتاب مفتاح العلوم، المطبعة الأدبية بسوق الخضار القديم بمصر ١٣١٧هـ، ص ٥-٦، وابن الحاجب، الشافية مع شرحها للأستراباذي، وشرح شواهده لعبد القادر البغدادي، تحقيق محمد نور الحسن ومحمد الزفزاف ومحمد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة حجازي بالقاهرة ١٣٥٦هـ، ٣/ ٢٥١، وابن عصفور، الممتع في التصريف، تحقيق فخر الدين قباوة، المكتبة العربية بحلب، ط. أولى ١٩٧٠، ٢/ ٦٦٨- ٦٧٠. وانظر كذلك من علماء التجويد، مكي بن أبي طالب القيسي، الرعاية لتجويد القراءة وتحقيق لفظ التلاوة، ص١٣٤.

شرَّاح الشافية ذكر أن الألف ليس لها مخرج، لأن صوتها لاينقطع عند مركز معين، بل هو هواء مستطيل يمتدّ من غير حصر. غير أنه لم يعترض على ابن الحاجب في متابعته لسيبويه(٣٨). وظهر بعد ذلك مفهوم المخرج المحقق والمخرج المقدّر، وأفردت الألف والواو والياء بمخرج دعي بمخرج الجوف، وهو مخرج مقدّر. أما الواو والياء غير المدّيتين فقد بقيتا في ترتيب المخارج مع المخارج المحققة(٣٩).

ويميّز سيبويه الألف من الواو والياء، مع اشتراكها – أي ثلاثة الأحرف – في أن مخارجها تتسع لهواء الصوت أكثر من اتساع غيرها، لأن الألف أشدّ اتساعًا، إذ ليس لها تحرّك نطقي ملحوظ، على حين أن الياء يرتفع معها اللسان تجاه الحنك، وأن الواو تُضمّ معها الشفتان. وهذه الثلاثة – كما يقول – أخفى الحروف لاتساع مخرجها، وأخفاهن وأوسعهن مخرجًا: الألف ثم الياء ثم الواو(٤٠). والخفاء هنا هو عدم وضوح المخرج بسبب اتساعه، وقد أكَّد سيبويه ذلك الفرق بين الألف من جهة، والواو والياء من جهة أخرى في موضع متقدّم. يقول: « وإنما خفّت الألف هذه الخفة، لأنه ليس منها علاج على اللسان والشفة، ولا تحرّك أبدًا، فإنما هي بمنزلة النفس، فمن ثَمّ لم تثقل ثقل الواو عليهم ولا الياء، لما ذكرت لك من خفة مؤنتها »(٤١). ويصف سيبويه الألف بالهاوي نظرًا

(٣٨) انظر: الخضر اليزدي (كان حيًّا سنة ٧٢٠هـ)، شرح شافية ابن الحاجب، ٢/ ٩٨٢.

(٣٩) انظر: غانم قدوري الحمد، شرح المقدمة الجزرية (مرجع سابق)، ص٣٣٢.

(٤٠) انظر: الكتاب، ٤/ ٤٣٦.

(٤١) انظر: السابق، ٤/ ٣٣٥– ٣٣٦.

لاتساع مخرجه لهواء الصّوت أشدّ من اتساع مخرج الواو والياء، كما تقدمت الإشارة. وذكر سيبويه في تضاعيف باب الإدغام بعد الخلاصة التي قدّمها للدرس النظري مايؤكد شرحه لأحوال الواو والياء والألف بعيدًا عن فكرة الترتيب المخرجي. « فالياء أخت الواو، فكأنهما من مخرج واحد». كما أن « الواو إذا كانت قبلها ضمة والياء قبلها كسرة فهو أبعد للإدغام، لأنهما حينئذ أشبه بالألف.. وإن لم يبلغا الألف، ولكنْ فيهما شَبَهٌ منها.»(٤٢). أما إذا لم تكن حركة ما قبلهما مجانسة لهما فهما ليسا بمنزلة الألف، نحو: ثوْب بكر، وجَيْب بكر(٤٣). ونجد لدى ابن جني شرحًا لمخارج هذه الأصوات، وبحثًا للحركات التي هي أبعاض لهذه الحروف. كما نجد عنده إشارات إلى قوّة الواو والياء إذا تحركتا، إذ تلحقان بالحروف الصحاح. وكذلك تصحّ الواو والياء إذا كانتا مسبوقتين بفتح، نحو: ثَوْب، وبَيْت(٤٤).

(٤٢) انظر: الكتاب، ٤/ ٤٥٣، ٤٤٦، ٤٤٧.

(٤٣) انظر: الكتاب، ٤/ ٤٤٠.

(٤٤) انظر: ابن جني، سرّ صناعة الإعراب، ١/ ٨، ٢٠- ٢١. وقد أوضح مكي القيسي حالتي الواو والياء بصورة جلية. فالواو والياء الساكنتان إذا سبقتا بفتح فهما حرفا لين. أما إذا سبقتا بحركة مجانسة لهما فهما مع الألف حروف المدّ واللين. انظر: الرعاية، ص١٠١. أما ابن سينا فقد فصل بين الواو الصامتة والياء الصامتة من جهة والواو المصوّتة والياء المصوّتة والألف من جهة أخرى في بيان المخارج. انظر: رسالة أسباب حدوث الحروف، ص٨٤. ومصطلح «الصامت» و «المصوّت» هما من استعماله.

والغريب في هذا الصدد ما ذكره إبراهيم أنيس من أن مسلك القدماء –ومنهم سيبويه – في الحديث عن هذه الأصوات حين تحدثوا عن الصفات، لاحين تحدثوا عن المخارج، مسلك سليم مستقيم على كل حال، فهو خير من تلك الرواية التي جاءت في معجم (كتاب) العين من أنها جوفية أو هوائية وليس لها حيز تُنسب إليه(٤٥). والحقّ أنّ القدامى لم يعالجوا هذه الأصوات حين تحدثوا عن الصفات، إنما كانوا يذكرون صفات لهذه الأصوات، مع ملاحظة تداخل درس الصوامت والصوائت لديهم. والدليل على ذلك أن ابن جني خصّص لهذه الحروف «الصوائت» الطويلة و«الحركات» القصيرة حيِّزًا مستقلًّا عن بحث المخارج والصفات(٤٦). أما معالجة الخليل فهي أقرب إلى الصواب من غيرها حتمًا، لأن الخليل فهم أن هذه الحروف لاينقطع عندها الصوت فيكون لها مخرج واضح محقّق، إنما يتصل النطق بها في فراغ الحلق والفم حتى ترجع إلى مبتدئها ومبتدأ كلّ الأصوات من أقصى الحلق، أي الحَنجرة، لكن على غير طريقة الصحاح(٤٧).

(٤٥) انظر: أنيس، الأصوات اللغوية، ص١١٨.

(٤٦) انظر: ابن جني، سرّ صناعة الإعراب، ١/ ١٧– ٣٣.

(٤٧) انظر: كتابي، أصالة علم الأصوات عند الخليل، ص٣٢– ٣٣، وقارن بكتاب العين (مرجع سابق)، ١/ ٥٧– ٥٨ وقد وصف سيبويه هذه الأصوات في موضع متقدم (انظر الكتاب، ٤/ ١٧٦) وصفًا قريبًا من وصف الخليل حين قال: «وهذه الحروف غير مهموسات، وهي حروف لين ومدّ، ومخارجها متسعة لهواء الصوت، وليس شيء من الحروف أوسع مخارج منها، ولا أمدّ للصوت. فإذا وقفت عندها لم تضمّها بشفة ولا لسان ولا حلق كضمّ غيرها، فيهوي الصوت إذا وجد متسعًا حتى ينقطع آخره في موضع الهمزة».

ويختم سيبويه حديثه في هذا الجانب النظري بالوقوف عند الحروف المطبقة والمنفتحة. فالمطبقة عنده هي الصاد والضاد والطاء والظاء، أما المنفتحة فهي كلّ ماسوى ذلك من الحروف، لأنك لاتطبق لشيء منهن لسانك، ترفعه إلى الحنك الأعلى. ويوضح سيبويه – وكلامه هنا من الوضوح بحيث لا يحتاج إلى مزيد– أن حروف الإطباق لها موضعان من اللسان، موضع يحاذي الحنك الأعلى (أي من مؤخر اللسان)، وموضع يشارك في المخرج. أما حروف الانفتاح فلها موضع واحد من اللسان هو موضع النطق في المخرج فقط(٤٨). ويرى سيبويه أنّ الإطباق يكون فيصلًا بين حرف وآخر. « ولولا الإطباق لصارت الطاء دالًا، والصاد سينًا، والظاء ذالًا، ولخرجت الضاد من الكلام، لأنه ليس من موضعها غيرها»(٤٩). فالضاد تنفرد بمخرج كما تقدّم وصفها وتصنيفها لديه. أما الطاء والدال من جهة، والصاد والسين من جهة ثانية، والظاء والذال من جهة ثالثة فيشكِّل كل منها ثنائيًّا مخرجيًّا. ويكفي لكي يتحول الحرف إلى أخيه أن تزول عنه صفة الإطباق. أما في النطق الحديث فيصحّ القول: لولا الإطباق لصارت الطاء تاء، والضاد دالًا(٥٠). وقد تابع ابن جني هذا الدرس الخاص بالصفات، وصنفها

(٤٨) انظر: الكتاب، ٤/ ٤٣٦، وقارن بإبراهيم أنيس، الأصوات اللغوية، ص١١٩، وتمام حسّان، مناهج البحث في اللغة، ص١١٥. ويقول الدكتور حسّان: «أما الإطباق فارتفاع مؤخر اللسان في اتجاه الطبق بحيث لايتصل به، على حين يجري النطق في مخرج آخر غير الطبق، يغلب أن يكون طرف اللسان أحد الأعضاء العاملة فيه». وانظر كذلك: غانم قدوري الحمد، شرح المقدمة الجزرية ٢٩٩– ٣٠٠.

(٤٩) انظر: الكتاب، ٤/ ٤٣٦.

(٥٠) انظر: الحمد، شرح المقدمة الجزرية، ص٣٠٠.

ضمن انقسامات قبس مضمون معظمها من سيبويه. وذكر في هذا الصدد: الاستعلاء والانخفاض، والصحة والاعتلال، والسكون والحركة، والأصل والزيادة، وحروف القلقلة، والمشربة، وحروف الذلاقة، والمصمتة، والحرف المهتوت(٥١). ومع أن الفضل للمتقدّم، وأن ابن جني ضَمَّن كلامه شيئًا من أقوال غيره من غير إشارة ثَمّ، فإن عمله في الدرس الصوتي ليس بالقليل أو المكرّر.

٣- بين الخليل وسيبويه

لقد تبيّن مما تقدم أن سيبويه أجمل المعلومات التي قبسها من شيخه الخليل، ونظمها، وساقها بهذه الطريقة المحكمة علمًا وأسلوبًا، ثم طبقها باقتدار عجيب في أمثلة الإدغام التي عرض لها، مما يؤكد فهمه للمعطيات الصوتية كفهمه للمعطيات النحوية، فضلًا عن فقهه العربية وأصولها والاحتجاج لها. ولا عبرة بما ساقه بعض الدارسين من أن سيبويه لم يذكر شيخه الخليل على عادته في كتابه. إذ إنه نقل صورة متفقًا عليها بين شيوخه وأصحابه(٥٢). غير أنه ينبغي أن نؤكد أن الخليل كان يورد معلوماته في كتابه «العين» عن طريق الإملاء على تلميذه الليث بن المظفر، ولم يكن قد توفَّر على كتابه يؤلفه التأليف المعهود مع المراجعة والتدقيق.

(٥١) انظر: ابن جني، سرّ صناعة الإعراب، ١/ ٦٠- ٦٥. ويذكر أن مكي القيسي بلغ بالصفات أربعًا وأربعين صفة. انظر: الرعاية، ص٩١- ١١٧.

(٥٢) انظر: كانتينو، دروس في علم أصوات العربية، ص٢٩، وإبراهيم أنيس، الأصوات اللغوية، ص١٠٦، وتمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، ص٥١. وقارن بالمزهر للسيوطي، ١/ ٨٥. وذكر الدكتور تمام حسان في كتابه اللغة العربية معناها ومبناها أنه «ذهب بعضهم إلى أن سيبويه فهم النحو والصرف فهمًا تامًّا عن شيوخه، ولكنه لم يفهم عنهم الأصوات، ومن ثَم لم يستطع أن ينقلها واضحة للناس»، انظر: ص٦٠.

كما أنه كان ينثر آراءه على تلامذة آخرين غير الليث. ولذلك جاءت المعطيات الصوتية في مقدمة العين، وفي مصادر أخرى قريبة من زمن الخليل كالجمهرة لابن دريد (ت٣٢١هـ) وتهذيب اللغة للأزهري (ت٣٧٠هـ) متداخلةً ولا تسلك مسلك النص الواحد. لكن كثرة النقول التي ضمتها كتب اللغة عن الخليل في هذا الصدد تشير إلى أن المصدر واحد، وإن تعددت الروايات واختلفت الصور.

وتجدر الإشارة إلى أن الغاية من الدرس الصوتي فرّقت بين الشيخين الخليل وسيبويه. فقد كانت غاية الخليل كشف خصائص تشكيل الأصوات لبناء معجم يستوعب كلام العرب، من غير أن يشذّ عنه شيء من ذلك(٥٣). ولذلك أسهب الخليل في الحديث عن مسائل صوتية تشكيلية تتصل بطرق تركيب الكلام وخصائصه. كالأبنية وأنواعها، وحروف الذلاقة والطلاقة والتوسط، وأبنية الحكاية المؤلفة والمضاعفة، وبعض معايير معرفة المصنوع والدخيل، وقواعد تبين مجاورة الحرف للحرف بالتقدم والتأخر، ونحو ذلك. أما غاية الدرس الصوتي عند سيبويه فأخصّ من ذلك. فهو يقول بعد أن قدّم خلاصة لهذا الدرس: «وإنما وصفت لك حروف المعجم بهذه الصفات لتعرف مايحسن فيه الإدغام وما يجوز فيه، ومالا يحسن فيه ذلك ولا يجوز فيه، وما تبدله استثقالًا كما تدغم، وما تخفيه وهو بزنة المتحرّك»(٥٤). ويفسّر اختلاف الغايتين من هذا الدرس لدى الشيخين أشياء، منها: عدم تطرق سيبويه إلى تلك المسائل التشكيلية، وعدم ذكره الذلاقة والإصمات، وبيان قواعد مجاورة الحروف

(٥٣) انظر: العين للخليل، ١/ ٤٧.

(٥٤) انظر: الكتاب، ٤/ ٤٣٦.

وغيرها. على أنهما اتفقا على أهم المسائل التي ترد عادة في علم الأصوات النطقي من بيان المخارج ودرجات الانفتاح وصفات النطق، وما يلحق بذلك من مسائل تمهيديّة مهمة كجهاز النطق ومادة الصّوت.

لكن أبرز ماتضح لدى الخليل وغاب عن درس سيبويه تقسيم الأصوات إلى صحاح وعلل، ووصف المخارج انطلاقًا من أسماء أعضاء جهاز النطق. والصحاح عند الخليل لها أحياز ومدارج (أي هي الصوامت نفسها)، على حين أن العلل أو الجوف لا تنسب إلى شيء من الأحياز أو المدارج أو المخارج، إنما تنسب إلى الجوف والهواء(٥٥). لكن لايمنع من أن تختلف مجاريها وتتباين مباديها، فيكون لكل منها حيز متدرج(٥٦). ولا نجد لدى سيبويه أثرًا لألقاب المجموعات المخرجية كالحلقية واللهوية - لم يذكر اللهاة أصلًا- والشجرية والأسلية والنطعية واللثوية والذلقية والشفهية والجوفية أو الهوائية. ويقطع إبراهيم أنيس بأن هذه المصطلحات ليست للخليل، إذ لو كانت له لكنا وجدناها لدى سيبويه. وكأن سيبويه نقل كلّ شيء ذكره الخليل لسبب أو لغير سبب(٥٧). وهناك مجموعة من الأوصاف الواردة لدى الخليل كالنصاعة والهشاشة وضخامة الجرس والكزازة وغيرها لا ترد عند سيبويه. أما اختلافهما في عدد المخارج فليس من المتيسر القطع

(٥٥) انظر: العين، ١/ ٥٧- ٥٨.

(٥٦) انظر: العين، ١/ ٥٧- ٥٨، وقارن بتذكرة النحاة لأبي حيان الأندلسي، تحقيق عفيف عبد الرحمن، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط. أولى ١٩٨٦، ص٢٩.

(٥٧) انظر: أنيس، الأصوات اللغوية، ص١٠٧- ١١٢، وقارن بكتابي: أصالة علم الأصوات عند الخليل، ص٤٣.

بشأنه برأي حاسم لعدم توفّر الأدلة ومسوّغات الاستنتاج. ولذلك فإن ما نسبه ابن الجزري (ت٨٣٣هـ) إلى الخليل من أنه أورد سبعة عشر مخرجًا ليس عليه دليل(٥٨).

أما اختلافهما في ترتيب المخارج فيكاد ينحصر في موضع واحد. ففي الرواية المستفيضة عن الخليل أنه ابتدأ بالحروف الحلقية ثم اللهوية ثم الشجرية ثم الأسلية، وهنا موضع الاختلاف، إذ ينبغي أن يرد في هذا المكان الحروف الذلقية (ل.ن.ر) وتليها الحروف النطعية فالأسلية فاللثوية فالشفوية. إذن فالأسلية التي حقّها – بناءً على ترتيب سيبويه– أن تكون بعد النطعية وقبل اللثوية تقدّمت وأخذت موقع الذلقية(٥٩). لكنّ رواية أخرى عن الخليل وردت في كتاب تذكرة النحاة تجعل اللام والنون والراء بعد الحروف الشجرية ثم تأتي الحروف الأسلية ثم النطعية ثم اللثوية ثم الشفوية(٦٠). ويشير هذا إلى صورة أقرب إلى ترتيب سيبويه، وإلى الدرس الحديث. فسيبويه قدّم النطعية على الأسلية، وهي متقاربة عنده. وقد ذكر ذلك في تضاعيف باب الإدغام إذ يقول: «والطاء والدال والتاء يدغمن كلهنّ في الصاد والزاي والسين، لقرب المخرجين، لأنهنّ من الثنايا وطرف اللسان، وليس بينهن في الموضع إلا أن الطاء وأختيها من أصل الثنايا، وهن من أسفله قليلًا مما بين الثنايا»(٦١). أما الدرس الحديث فجمع بين هذه

(٥٨) انظر: الحمد، شرح المقدمة الجزرية، ص٢٢١– ٢٢٢.

(٥٩) انظر: كتاب العين، ١/ ٥٨. ويذكر استكمالًا لما تقدّم أن الخليل أخّر الذلقية إلى ما قبل الشفوية. فالأسلية عنده حلّت محل الذلقية، على حين أن الذلقية حلّت محل اللثوية. وانظر: الكتاب لسيبويه، ٤/ ٤٣٣.

(٦٠) انظر: كتاب تذكرة النحاة، ص٢٥– ٣١.

(٦١) انظر: الكتاب، ٤/ ٤٦٣، و ٤٥٧– ٤٥٨.

الحروف وجعلها في مخرج واحد دعي بالأسناني اللثوي(٦٢).

ويتفق الشيخان أخيرًا على أمر ذي أهمية قصوى، هو انطلاقهما من المعطيات الصوتية العربية التي عبّرت عنها بدءًا القراءات القرآنية، وخصائص الكلام الفصيح، والظواهر اللهجية المقبولة، إضافة إلى استنادهما إلى معارف العرب اللغوية في خلق الإنسان لبناء مصطلحات عربية مولّدة تخلو خلوًّا تامًّا من أيّ مصطلح دخيل(٦٣).

فالخليل قصد من بناء معجمه كتاب العين أن تُعرفَ به العربُ في أشعارها وأمثالها ومخاطباتها، وألا يشذ عنه شيء من ذلك(٦٤). أما سيبويه فذكر في تضاعيف باب الإدغام مايقطع بمعرفته بكلام العرب ومستوياته. فهو مثلًا يورد عبارات نحو: «وكلّه عربي»، و «هي عربية جيّدة»، و «البيان عربي». ونحو «أعرب اللغتين وأجودهما»، و «الأعرب الأكثر الأجود في كلامهم». ونحو «اللغة العربية القديمة الجيدة»، و «الحجازية الجيدة». ونحو «لغة لأهل الحجاز، وهي عربية جائزة»، «وبعض العرب ممن ترضى عربيته» و «يقولها من العرب بنو العنبر»، و«لكن بني تميم أدغموا».. وغير ذلك(٦٥). ويشهد ماتقدّم كلّه على أن الدرس الصوتي عند العرب والمسلمين درس أصيل نبع من معطيات حياتهم وجاء وافيًا بحاجات حضارتهم الناهضة، ولم يكن فيه أيّ أثر لاقتباس من الحضارات السابقة.

(٦٢) انظر: كتابي، مبادئ اللسانيات، ص ١٠٧.

(٦٣) انظر: كتابي، أصالة علم الأصوات عند الخليل، ص٦٦.

(٦٤) انظر: كتاب العين، ١/ ٤٧.

(٦٥) انظر: كتاب سيبويه، ٤/ ٤٥٧– ٤٨٥.